شرح كتاب المطوَّل

في البلاغة

سعد الدين مسعود التفتازاني

د. محمود توقيق

المحاضرة الأولى

....
....
....
....

طلب العلم عبادةٌ، وهذه العبادة تمر بثلاث مراحل:

1- المرحلة الأولى: مرحلة تُفضـــي إلى أن تكون حاملًا للعلم، كل همِّك أن تحمل العلم عن أهله، وأن تؤديه كما حملته عنهم.

2- المرحلة الثانية: هي مرحلة أن تخدم هذا العلم، وأن تخدم أهله وطلابه.

3- المرحلة الثالثة: وهي المرحلة العليا، وهذه للنبلاء، وهي مرحلة صناعة العلم، أن تكون صانعًا للعلم، وهي المرحلة التي يطوِّف فيها الإنسان حول مقام وراثة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

نحن عشنا طويلًا في مرحلة حمل العلم، نقرأ ونحفظ، ثم ننقل ما حفظناه إلى صـــدور الآخرين، دون أن نقدِّم أدنى خدمةٍ لهذا العلم، ولا لأهله، لكن ظني أنكم لا ترغبون في أن تُخلِدوا في هذا المقام؛ مع أن حمل العلم شـــيءٌ عظيمٌ!

«نَضَّرَ اللهُ وَجْهَ امْرَئٍ سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَبَلَّغَهَا».

والنضـــارة لا تكون إلَّا لأهل الجنة، فكيف إذا ما ارتقيتَ إلى أن تكون -فوق أن تكون خـادمًـا- أن تكون حـاملًا للعلم، أن تكون خـادمًـا لـه، وخدمتك للعلم لا تكون –على الإطلاق- بالتقليد والاجترار.

آفة العلم في بلادنا العربية ولا سيما في زماننا هذا ثلاثة:

1- أن الشيخ يلقِّن تلاميذه.

2- ثم يأتي التلاميذ فيقلِّدون شيخهم.

3- ثم يـأتي التلاميـذ بعـد ذلـك فيجترون، تعرفون كلمـة الاجترار، الاجترار هو ما يصنعه الإبل، نجتر ما أخذناه، ثم يتوقف الأمر عند ذلك!

هذا لا يترتَّب عليه تقدمٌ للأمم، وصنعة العلم أصلًا إنما هي صنعةٌ يُراد بها تحقيق رسالة الإنسان في الحياة، فأنت لك رسالةٌ في هذه الحياة، حدَّدها الله في أول موطنٍ تكلَّم فيه عن سـيدنا آدم، فالله تكلَّم في سـورٍ عدة عن خلقه لسيدنا آدم.

أول موضعٍ كان موضـع سـورة البقرة، وهذا الموضـع هو الموضـع الوحيد الذي لم يتكلَّم فيه الله عما خلق منه آدم، كل المواضـــع الأخر في القرآن تكلِّمنا عما خلق الله منه آدم، إلَّا هذا الموضع في سورة البقرة.

فقد حدَّثنا تعالى عما خُلق له آدم، وظيفته في الحياة، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:30].

حينما تقرأ قول الله تعالى ﴿رَبُّكَ﴾ فانتبه جيدًا جدًّا:

أنت حين تقرأ القرآن، وتسمع أو تقرأ قوله: (ربِّك) ويكون المخاطَب فيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فاعلم أن الله ينبئك أنه متجلٍّ بعظيم جلاء عطاءات الربوبية! والربوبية عنايةٌ، والربوبية عطاءٌ، فحين تكون الربوبية مضافًا إليها رسول الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- فهي أعظم ما يكون! أي هو يتجلَّى بكل جمالات الربوبية! ما تجلَّى الله بربوبيته على أحدٍ من خلقه كما يتجلَّى بها على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم!

وكل نعمةٍ أنعم الله بها على رسوله جعل لأتباعه ومحبيه نصيبًا منها! حتى النبوة جعل لك نصيبًا منها! وهو الرؤية الصالحة.

فإذا سمعت كلمة (ربك) توقف عندها! وانظر في عطاءات الربوبية في الآية التي جاءت فيها كلمة (ربك) حتى في آيات التخويف:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر:14].

فيها عطاء ربوبيةٍ لرسول الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ولأتباعه، وللمستمسكين بسُنته.

هنا يقول للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:30].

إذًا هو تعالى أنبأ الملائكة بأن آدم هذا ما خلقته للســـماء، لن يكون معكم في السماء، وإنما سيكون في الأرض.

معنى كون آدم خليفة في الأرض:

معنى أن آدم ســيكون في الأرض خليفةٌ، أي صـــاحب رســالةٍ، وأنه صـــاحب أجيالٍ يخلف بعضــها بعضًـــا، وأن هذه الأجيال هي قائمةٌ بهذه الرسالة.

☼ ما رسالتنا؟

رسالتي في الحياة أنا وأنت وكل بني آدم مكونةٌ من شقين:

الشـق الأول: أن نعمُر هذه الحياة، كونها وإنســانها، فالحياة مكونة من شقين: الكون وأنت، مكونة من الكون والإنسان.

الكون مسخرٌ للإنسان، والإنسان مسخرٌ لله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[الجاثية:13].

كل ما في الســـــماوات، حتى الملائكة مســـــخرين لك، حتى البراكين والزلازل مسـخرةٌ لك، كل شـيءٍ في الحياة، ما في السـماوات بطلاقتها، وما في الأرض بطلاقتها، جميعًا لك منه:

﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾[الجاثية:13].

ثم يقول لك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:13].

يعني لن تستطيع أن تفهم وجه تسخير الكون لك إلَّا إذا تفكَّرتَ!

☼ متى يكون التسخير متحقِّقًا؟

إذا أنت سـخَّرت نفسـك لربِّك، سـخِّر نفسـك لربِّك يسـخِّر لك الله الكون كله.

فبالتالي أنا عملي أن أعمُر هذه الحياة بمراد الله الشـــرعي؛ القائم في كتاب الله وسُنة رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- فقط.

الشـــق الثاني: أن أخرج الناس من الظلمات إلى النور، هذه وظيفتي، أنت مدرس تُخرج الطلَّاب من ظلمات الجهل، وعدم المعرفة إلى النور، أنت رجلٌ تنصر الحق، تُخرج الناس من ظلمات الذل.

والظلمات كثيرةٌ، عملي أنا وأنت أن نُخرج الناس من هذه الظلمات، وهذا لا يكون إلَّا بالعلم، والعلم لا يكون إلَّا بالبيان.

ولذلك الحق -سبحانه وتعالى- يقول هكذا في أول سورة الرحمن، وعليك أن تقرأها بتؤدة! يقول:

﴿الرَّحْمَنُ﴾[الرحمن:1].

السورة الوحيدة التي استُفتحت باسمٍ من أسماء الله هي سورة الرحمن، واختار هذا الاسم الدَّال على انفتاح رحمته وعُظُميتها! لم يقل: (الرحيم)؛ لأن النِّعم التي ستأتي، والآلاء التي ستأتي في السورة ليست خاصةً بفئةٍ من عباده، ثم يقول:

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)﴾[الرحمن:2:4].

مقتضى الظاهر أن تُرتَّب الآيات بالطريقة الآتية: الرحمن، خلق الإنسان، علَّمه البيان، علَّمه القرآن، يخلقني أولًا أتعلَّم الكلام، ثم أتعلَّم القرآن،؛ لكن الله نَسَقَها بطريقةٍ أخرى ليبيِّن لك مقومات وجودك! فأنت لن تكون إنسانًا صاحب رسالةٍ إلَّا إذا كنت مكنوفًا بعِلْمَين: بعلم القرآن، وبعلم البيان.

القرآن يحقِّق لك المعرفة والعلم والحِكمة، ثم بعد ذلك الإيمان، هذه الأشياء الأربعة لن تجدها إلَّا في القرآن الكريم:

(1) **معرفة**.

(2) **ثم علمٌ**.

(3) **ثم حِكمةٌ**.

والعلم والمعرفة بغير الحِكمة خطرٌ! العالم الذي ليس له من الحِكمة نصيبٌ علمه خطرٌ عليه! فلا بد وأن يكون لديه معرفة، اتساع معارفٍ، ثم علمٌ متخصصٌ، ثم حِكمةٌ تضبط المعرفة والحكمة تُستعملا معًا فيما ينفع الناس.

(4) **ثم الإيمان**: الذي ترتقي به إلى مقام الصديقيات.

طيب، هذا من حيث قلبك الذي هو وعاءٌ لهذا القرآن الكريم، ثم يأتي على الجانب الآخر ويقول:

﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[الرحمن:4].

وهذا وجهٌ من وجوه تكريمك، فحين يقول:

﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[الإسراء:70].

مما كرم الله به بني آدم هو البيان اللساني، أن تُبين عن مكنون فؤادك بلسانك، كما أفعل الآن.

الكائنات الأخر لديها بيانٌ، ولكن ليس بيانًا لسـانيًّا، المختص بالإبانة اللسانية –هذه اللغة– هو الإنسان وحده، فهذا يبيِّن لك قيمة هذا اللسان، قيمة هذا العضو الذي تتكلَّم به.

لا تكون له قيمةٌ إلَّا إذا كان يستمد بيانه من القرآن! فإذا عمل لسانك فيما لا يتواءم مع القرآن الكريم معرفةً وعلمًا، وحِكمةً وإيمانًا؛ فلسـانك هذا وبالٌ عليك!

وأنت لن تسـتطيع البتة أن تقرأ القرآن، وأن تحصِّـل منه المعرفة والعلم والحِكمة والإيمان إلَّا إذا تعلَّمتَ ذلك اللسان الذي نزل به القرآن.

القرآن نزل بلسـانٍ عربيٍ مبينٍ، وكلمة مبينٍ ليس معناها واضـح، وإنما معناها أنه شـيءٌ مفصَّـلٌ، فالإبانة لا تعني الوضـوح، تعني أنه مفصَّـلٌ، ليس مختلطًا بعضه ببعضٍ، فالقرآن دائمًا يقول:

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[الشعراء:195].

إذًا أنت لن تسـتطيع أن تفهم القرآن على الوجه الذي يريد الله منك أن تفهم إلَّا إذا كنتَ فقيهًا بهذا اللسان العربي المبين، أي لسانٍ هو اللسان الذي كان يتكلَّم به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ويتكلَّم به السـابقون، ويتكلَّم به أصحابه وأتباعه.

أما اللســـان الذي بين يدينا الآن، الذي نتعامل به، فهذا فيه خلطٌ كثيرٌ!

إذًا أنا حين أريد أن أفقه القرآن عليَّ أن أتعلَّم اللسان في صنفه الأول، حين كان يتكلَّم رسول الله.

تميُّز اللسان العربي على غيره من الألسُن:

رسول الله لو بُعث الآن، وسمعنا نتكلَّم سيفهم عنَّا، وإذا سمعناه يتكلَّم أيضًا سنفهم عنه، لا توجد لغةٌ على ظهر الأرض أن يأتي إنسانٌ منذ خمسة عشر قرنًا، ويقيم في الناس، ثم يتكلَّم فيفهمون، أو يتكلَّمون فيفهم عنهم.

لو أن عيسى -عليه السلام- جاء وبُعث الآن، وتكلَّم بلسانه لن يفهم أحدٌ! وموسى كذلك، وكل الأنبياء، لو جاءوا وتكلَّموا بألسنتهم مع أقوامهم -الذين يدينون بأديانهم- لن يفهموا عنهم شـــيئًا؛ لأنه لم يعد من لســـان عيسى شيءٌ، ولم يعد من لسان موسى شيءٌ، ولا من لسان أي نبيٍّ شيء، الوحيد الذي بقي لسانه، وسيبقى إلى يوم القيامة هو اللسان العربي.

هذا يبيِّن لك قيمة هذا اللســـان! تفرُّده على كل لغات العالم! ليس هناك لسان له أكثر من خمسة عشر قرنًا باقٍ كما هو لم يتغيَّر.

لو بُعث شكسبير الآن، ونزل في لندن، وتكلَّم كما كان يتكلَّم في زمانه لما فهم بريطانيٌّ كلمةً واحدةً مما يقول! ولما فهم هو كلمةً واحدةً مما يتكلَّم به البريطانيون الآن!

هذا يبيِّن لك قيمة هذا اللسان الذي يحاولون بكل ما يملكون أن يُباد، أو أن يُفْسَد؛ ولذلك يصرون على أن يعلِّموا أبناءنا في مرحلة الحضانة اللغات الأعجمية! حتى لا يُحسن فقه اللسان العربي؛ لأنه لا يمكن أن تجمع لغتين في آنٍ واحدٍ، لا بد وأن يطغى أحدهما على الآخر.

هنا تأتي الخطورة! الخطورة أنه يريد أن يجعل ولدك يتعلَّم لغةً أعجمية بجانب تعلُّمه للغة العربية، الخطر لن يكون على اللغة الأعجمية، سيكون على اللغة العربية! فيخرج لدينا جيلٌ لا يفهم شيئًا عن العربية!

فإذا قرأ القرآن يتكلَّم في القرآن بما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، على ما تسمعون الآن في وسائل الإعلام وغيرها! يتكلَّمون في القرآن كلامًا لو سمعه رسول الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لأقام عليهم حد التعزير، لعزَّرهم لأنهم يخبطون فيه خبط عشواء، المهم عندنا أنك لا بد وأن تُعنى بلسانك، لسانك فِكرك.

تعريف الإنسان عند المناطقة:

المناطقة لما عَرَّفوا الإنسـان قالوا: حيوانٌ ناطقٌ، هو لا يقصـد ناطق يعني يتكلَّم؛ إنما معناه يفكِّر، الإنســان حيوانٌ مفكرٌ، ويدل على تفكيره بنطقه، ومعناه أنه لا يوجد إنسانٌ سَوِيٌّ ينطق قبل أن يفكِّر!

فالأصـــل فيَّ أنني إذا نطقتُ فقبل أن أنطق أكون قد فكرتُ مليًّا فيما أنـا نـاطقٌ بـه، وبـالتـالي الـذين يتكلَّمون من غير تفكيرٍ خرجوا من دائرة الإنســانية؛ لأنه لا يكون إنســانًا إلَّا إذا فكَّر ثم نطق، أما مَنْ نطق من غير أن يفكر؛ فهذا المناطقة يقولون: إنك لســتَ بداخلٍ في حد الإنســان؛ إذًا الكلمة إنما تعني الفكر، إذا تكلَّمتَ اطَّلَعْتُ على عقلك.

ولذلك الإنســان إذا كان صــامتًا لا تعرفه، متى تعرفه؟ إذا نطق، بمجرد أن ينطق أزِنه، أنا لا أزِن مســـموعي؛ أنا أزن ما وراء الكلمة، فكره الذي استورد هذه الكلمة.

وبالتالي عليك أن تكون دقيقًا جدًّا وأنت تتكلَّم؛ لأنك إنما ترسم صورةً لعقلك، تقدِّم صــورةً لعقلك، فإذا كنتُ أقول كلامًا هكذا كما تســمع في الشـــارع، فيعني هذا أن هذا عقلٌ مختلطٌ، لا يثبُت؛ من هنا تأتي أهمية أن تدرس هذا اللسان.

دراسة اللسان العربي عبادةٌ:

من هنا يتبيَّن لك أن دراسة اللسان العربي عبادةٌ، وهذه الدراسة لا بد أن تكون دراسةً احترافيةً، وليست دراسة هوايةٍ.

هناك فرق بين أن أفعل فعلًا كهوايةٍ، وأن أفعله احترافًا، الاحتراف يحتاج إلى أدواتٍ، ويحتاج إلى صبرٍ، ويحتاج إلى ألَّا تستعجل الثمرة، فإن قَدْر ما يُفسد الأعمال هو استعجال الثمرة! تريد أن تصل إلى النتيجة بسرعةٍ، إن فعلتَ هذا فلن تصل إلى شيءٍ!

فنحن نقول لك: إن هذا اللسان من أهم ما خلق الله لك؛ فعليك أن تُعنى به، لأنك ستُسأل عنه؛ لأنه نعمةٌ! والنعمة لا بد من شكرِها، وليس شكرُها مجرد أن تقول: الحمد لله، فالنصراني يقول: الحمد لله، وإنما شكر النعمة يتمثل في:

- أن تعلم أن الله هو الذي أعطاك.
- وأنه قادرٌ على أن يسلبها منك، ويعطيها لغيرك.
- وأنه ما أعطاك لفضلٍ فيك، وإنما تفضُّلًا منه.
- وأنَّك لن تكون لله شاكرًا إلَّا إذا عَلِمتَ فيم خُلقَت له هذه النعمة، هذا القلم خُلق لِمَ؟ لأكتب به، لا يصلُح أن أستعمله في غير هذا الغرض الذي خُلق له.

إذًا أول شيءٍ أن تعرف أن هذه النعمة التي معك، أي نعمةٍ حسيةٍ أو معنويةٍ، هذه النعمة خُلقت لِمَ؟ والتزم بما خُلقت له، ولا تعطِّلها، إذًا لا بد أن أوظفها، وأوظفها فيما خُلقت له، فإن عطلتها كنتَ كافرًا بالنعمة!

الذين يعطِّلون عقولهم، ويوقفون عقولهم على درجة صفر، هؤلاء يكفُرون بالنعمة، وإذا استمر كفر العبد بالنعم، أدى به إلى أن يكفر بالمنعم، لو معك أي نعمةٍ من النعم، وأنت لا تستعملها، فأنت بها كافرٌ، لو استمر هذا الكفر بالنعمة سيُفضي بك إلى أن تكفر بالمنعم؛ لأن هذا اتهامٌ لله أنك أعطيتَ النعمة إلى مَنْ لا يستحقها، فكأنك تتهم الله بأنه ليس حكيمًا! لأن الحكيم هو الذي يعطي الشيء لمن يستحقه.

فأنا حين يعطيني الله نعمةً، فلا أستعملها، أقول لله: أنت أعطيتَ كما يقول إخواننا الجهلة: (يعطي الحلق لمن لا أذن له) هذه كلمةٌ كافرةٌ! لأنها تتهم الله بأنه ليس بحكيمٍ! ولو كان يعلم معنى هذه الكلمة ويقصدها، ومات في هذه اللحظة لمات كافرًا!

فكثيرٌ من الكلمات التي تجري في ألسنة الناس، وتسمعها كل يومٍ، هي كلمات كفرٍ، أنا لا أقول: أن الرجل كافرٌ، ولكنه يقولها وهو لا يدري:

«**رُبَّ كَلِمَةٍ لَا يُلْقَي لَها الرْجَلُ بَالًا تَهْوِي بِهِ فِي النَّار سَبْعِينَ خَرِيفًا**».

تهوي به في النار حتى يستقر! سبعين سنةٍ حتى يستقر في مكانه! فكم يبقى في مكانه؟! إذا كانت مسافة الوصول سبعين سنةٍ؛ إذًا البقاء في المكان الذي وصلت فيه؟! أنت لو ذهبتَ إلى أسوان تحتاج يومًا، ستبقى ساعةً في أسوان وتعود؟ أم تبقى يومين على الأقل؟! فالناس تنتبه لما تقول!

فنحن عندنا هذا اللسان العربي له علومٌ تُسمَّى:

((علوم اللسان العربي))

وهي كثيرةٌ جدًّا؛ لكن أهمها خمسة علومٍ، نسميها سلم الدرس اللغوي، فأول سلم عليك أن تعرفه، وأن تحسِنه أيضًا هو ما يسمى:

علم الأصوات:

- علم الأصوات علمٌ مرتبطٌ بالحروف التي تتشكَّل منها اللغة العربية.
- اللغة العربية من أقل علوم لغات أهل الأرض أصواتًا، أصواتها قليلةٌ، كلهم حوالي أربعة وثلاثين صوتًا.
- الحروف عندنا ثمانية وعشرين حرفًا، تبدأ بـ(الهمزة)، وتنتهي بـ(الياء)، الياء المتحركة.
- هذه اسمها أصواتٌ صامتةٌ، صوتٌ صامتٌ.

☼ ما معنى صامتٌ؟

يعني لو كتبتُ لك: (كتب) على السبورة الآن، وقلتُ لك: انطق، لو نطقتَ وقلتَ: (كَتَبَ) تكون قد أخطأتَ؛ لأنك لم تُشكِّلها، نحن نفعل هذا في المسابقات، أكتب كلمة بدون أن أضبطها، وأقول: اقرأها، يقرأها، أقول له: أخطأتَ، أنت قرأتها (كَتَبَ)، مَنْ يدريك أني لا أريد (كُتُبٌ)؟ إذًا الحرف لا يُنطق إلَّا إذا كانت عليه حركةٌ.

حركات تشكيل الكلمات ثلاثٌ، بعض الطلاب يقول: الحركات أربع، يقول: السكون، فأقول: اسمها سكون، فكيف تكون حركةً؟ الحركات: الفتحة والكسرة والضمة، على الترتيب هي حسب ثقل الحرف وخفته.

أخَف الحروف عندنا الفتحة، وأعلاها الضمة؛ ولذلك لما أريد أن أفخِّم الحدث أضم الحرف:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[البقرة:280].

هناك قراءة: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسُرَةٍ﴾[البقرة:280].

- ✓ ﴿عُسْرَةٍ﴾: يعني الرجل عليه دينٌ حوالي مائة جنيه أو ألف جنيه.
- ✓ ﴿عُسُرَةٍ﴾: مدينٌ بمليون!

تغيَّر حال المدين، بالسكون يعني دينٌ يسيرٌ، لكن ﴿ **عُسُرَةٍ**﴾: فالرجل عليه ديونٌ كثيرةٌ!

ولما يقول: ﴿**فَنَظْرَةٌ**﴾[البقرة:280]. فالذي عليه مائة جنيه تُنظره ساعة أو ساعتين، يومًا أو يومين، نظرة بسيطة.

لكن لما يكون عليه ديونٌ كبيرةٌ: ﴿**فَنَظِرَةٌ**﴾ أي ممكن أن تمهله أيضًا سنة.

فالقراءات هذه ليست مجرد أداة، فقد يترتَّب عليها تغيُّر أحكامٍ: ﴿**إِلَى مَيْسَرَةٍ**﴾[البقرة:280]. يعني أمهله شهر مثلًا.

ولو قلتَ: ﴿**إِلَى مَيْسُرَةٍ**﴾[البقرة:280]. نريد أن نمد في المهلة لحين ميسُرة، يدل على هذا بصوت الضمة، فهذا يدلك على أن كل شيءٍ عندنا له مدلول.

فنحن عندنا ثمانية وعشرين حرفًا صامتًا، أو صوتًا صامتًا، لا يُنطق وحده.

وعندنا ستة أصواتٍ، ثلاثة اسمهم صوت صائت قصير، الذي هو الفتحة والكسرة والضمة، لو مديت الفتحة ستكون (ألِفًا) تحوَّل إلى صوتٍ صائت طويل، وهذا يجعلك تنتبه إلى أنك وأنت تنطق تنطق الحركة بمقدارها؛ وإلَّا تحوَّلت إلى.. لما تقول: (اللهُ)، لو قلتَ: (اللهُ) وأطلت نطق الضمة، لو

قلتَ: (عبد اللهِ)، لو قلتَ: (عبد اللهِ) وأطلت نطق الكسرة؛ صار عبدًا للشيطان، بدلًا من صار عبدًا لله، صار عبدًا للشيطان، بمجرد أنك مديت الكسرة، إذًا المسألة ليست سهلةً، فالمسألة بمقاييس.

مَنْ الذي يعلِّمني ذلك؟ هذا يعلِّمني علم الأصوات، وهو الذي يُعرف في الناس —في غير طلاب اللغة العربية– يُعرف بعلم التجويد، إذا درستَ علم تجويدٍ، مخارج الحروف وصفاتها، فأنت تعرف علم الأصوات، حتى تنطق نطقًا صحيحًا؛ لأن النطق غير الصحيح، غير الدقيق، قد يُفضي إلى عكس المعنى الذي تريد؛ وهذا لا يجوز.

علم الصِّرف:

علم الأصوات علمٌ يتعامل مع الحروف، مع الأصوات، هذه الأصوات وحدها —الحروف وحدها– لا تشكِّل شيئًا، فنحتاج أن نعمل لها عملية تركيبٍ، نضع حرفًا بجوار حرفٍ، بجوار حرفٍ، فتصير كلمةً، هذا علمٌ اسمه: علم الصَّرف.

فعلم الصَّرف هو العلم الذي هو مصنع الكلمات، المادة الخام التي يصنع منها علم الصرف الكلمات هي الحروف والأصوات الصائتة، وغير الصائتة.

فلكي أتحوَّل من إنتاج أصواتٍ إلى إنتاج كلماتٍ فيجب أن أعمل علم صرفٍ، أدرس جيدًا جدًّا علم الصَّرف.

وعلم الصَّرف هذا هو الذي يعمل عملية الاشتقاق، يعني يُخرِج لك من الكلمة الواحدة عشرات الكلمات! واللغة العربية من اللغات الاشتقاقية، والاشتقاق هو الذي يُثري اللغة، فبدلًا من أن يكون لديك كلمة واحدة، يكون لديك عشر كلماتٍ، تستطيع أن تستخرج من كلمة (كتب) عشرات الكلمات.

☼ مَنْ الذي يعينك على عملية الاشتقاق؟

علم الصَّرف.

ولعلم الصَّرف ضوابطه، وله مقاييسه، قوالب هكذا، نسميها وزنًا صرفيًّا، الميزان الصرفي، فلا بد من أن أكون قد درستُ -على الأقل- مبادئ هذا العلم الصَّرفي، حتى إذا قمتُ بكتابة رسالةٍ إلى أبي أو إلى أي أحد، لا أكتب في الأسفل: (الراسل)! اسمها: (المرسِل)، وليس (الراسل)؛ فبالتالي لا بد أن أنتبه لمثل هذه الأمور.

الكلمات وحدها لا يُستفاد منها! كلمة (محمد) مثلًا، فلا بد أن تركِّب من الكلمات جُملًا.

☼ مَنْ الذي يشتغل بتركيب الكلمات والجمل؟

علم النحو.

أنت انتقلتَ من الدرجة الأولى —أصـوات– وذهبتَ إلى علم الصَّـرفٍ، فأنت لا تدرس الصَّـرف قبل أن تدرس الأصـوات؛ لأن الصَّـرف هو الذي يعلِّمك كيف تشكِّل الكلمة؟ لما تجد كلمة: (قال)، علم الصرف يخبرك بأن أصــلها: (قَوَلَ)، تحرَّكت (الواو) وانفتح ما قبلها، فقُلبت: (قال)، مَنْ الذي يعمل هذا؟ علم الصَّرف.

لكن هنا عليك أن تنتبه، ما معنى أن (الواو) تحرَّكت؟ فأنا من الممكن من البداية أن أقول: (قَوَلَ)، ولا أحد سيقول لي شيئًا!

أقول لك: انتبه! أنت تتعلَّم من اللغة أيضًا أخلاقيات للحياة:

- هذه (القاف) عليها فتحة، و(الواو) عليها فتحة.

- (الواو) مَنْ جارها في الكلمة؟ (القاف)، فهل هناك أنسٌ بين حركة (الواو) وحركة (القاف)؟

- يقول: ثقيلة.

- طيب، (الواو) لما وجد بجوارها (القاف) مفتوحةً، ووجد ثقلًا في الكلام؛ فلا بد أن تُحدِث ضـــربًا من التآنس؛ لأنها جارتها، والجار له حق: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[النساء:36]. فماذا تفعل؟

- تتنازل (الواو) عن حركتها؛ فإذا تنازلت عن حركتها قُلبت (ألفًا)، إذًا رضِيَت بأن تُقلب إلى حرفٍ آخر إرضاءً لـ(القاف).

فإذا كانت الأصوات ترعى حق الجوار؛ أفلا ترعَ أنت حق الجوار؟!

اللغة نفســها تعلِّمني أخلاقياتي! وهذا مهمٌّ جدًّا، ويركِّز عليه ابن جنِّي، ابن جنِّي يتكلَّم عن العربية باعتبارها صورةٌ للإنسان العربي، هو حين يدرس كتاب (الخصائص) فهو لا يكلِّمك عن خصائص اللغة من حيث هي لغةٌ، هو يحدِّثك عن خصائص الإنسان الذي يتكلَّم بهذه اللغة.

هذا الإنســـان الذي يتكلَّم يحب التآنس، تكون الكلمات والحروف والأصوات متنآنسةٌ مع بعضها البعض.

فالذين يدرسون اللغة العربية دراسةً جيدةً يعرفون كيف يصفون الرجل العربي الأول، ليس الآن، الآن ليس على ظهر الأرض تقريبًا رجلٌ عربيٌّ قُحٌّ!

نحن الآن لا هوية لنا! لا نحن عرب، ولا إنجليز، ولا أي شــيءٍ! فقدنا هويتنا! عن رضا طبعًا، وليس رغمًا عنا، فنحن مســرورون بأننا فقدنا هذه العروبة!

فيأتي عِلم النحو يقول: أنا سـآتي بكلمةٍ، وأضـع كلمةً، وأحوِّلهم لك إلى جملةٍ، يقول لي: انتبه! تركيب الجملة عندنا كتركيب الأسـرة في المجتمع العربي، في المجتمع العربي تتكوَّن الأسرة من زوجٍ وزوجٍ ثم أولا.

ليس عندنا كلمة (زوجة)، كلمة (زوجة) كلمةٌ غير فصـيحةٍ، الرجل والمرأة سـواء، والزوج هو الفرد الذي لا يكتمل آداؤه إلَّا بمثيله، فأنت زوجٌ، وامرأتك في البيت أيضًا زوج، لا فرق بينكما، فدلَّ على عدم الفرق بينكما في آداءِ الوظيفة بأن جعلكما سواءً في النطق! فقال: أنت زوجٌ، وهي زوجٌ، تساويتما نطقًا، فتساويا وظيفةً، فلستَ أنت بأفضل منها، ولا هي بأفضل منك؛ لذلك الكلمة لم يكن فيها تفاضل إطلاقًا.

وبالتالي لا بد أن أنتبه أن امرأتي في البيت هي شـقِّي الثاني، ترى هذا الشـق ليس له فضـيلةٌ على هذا الشـق: ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[النساء:34]. فهي بعضي، وأنا بعضها، هذا خُلُقٌ أيضًا.

مكونات الجملة:

تتكون الجملة من مُسنَدٍ ومُسندٌ إليه، مُسند يعني فعل، ومُسند إليه يعني فاعل، مُسند: هي المرأة، الزوج، ومُسند إليه هو الفاعل، الذي هو الرجل، فإذا كان بينهما عقدٌ شرعيٌّ، نسميها النسبة، نسبةٌ بين الفعل وبين الفاعل، يكون هناك عقد شـرعي، هناك مأذون –الذي هو علم النحو– أسند الفعل إلى الفاعل، فصارت جملةً.

الفعل هذا عندنا مثل المرأة، قد تكون المرأة عقيمٌ فلا تُنجب، فأسميه فعلًا لازمًا، ليس لي مفاعيل:

مات محمدٌ: (مات) فعل عقيم، امرأة لا تنجب؛ لذلك الجملة مكونةٌ من رجلٍ وامرأةٍ.

هناك أفعالٌ لها مفاعيلٌ كثيرةٌ جدًّا، تجد الجملة الواحدة فيها خمس أو ســـت مفاعيل، لديهم خمس أولاد، هؤلاء المفاعيل هم أولادك، إذًا عندي الجملة تتكون من:

- **مسند.**
- **مسند إليه.**
- **متعلِّقات**: بمن يتعلَّقون؟ قال: يتعلَّقون بالفعل، لماذا؟ قال: انظر لي في أسرتك، أولادك الصغار يتعلَّقون بمن؟ بأمهم أم بأبيهم؟ والمفاعيل تتعلَّق بالأفعال أم بالفاعل؟ بالأفعال، إذًا النحو مأخوذٌ أصـــلًا من تكوين البيئة العربية.

☼ هذا النحو ما وظيفته؟

وظيفته أن يشتغل بأصل المعنى.

☼ ما المقصود بأصل المعنى؟

أنا لما أقول: (كتب محمدٌ الدرس)، كل أصل المعنى أني أنا أخبرتُ بأن فعلًا –وهو الكتابة– وقع من رجلٍ هو محمدٌ، على شيءٍ هو الدرس، قُضي الأمر، لا أكثر من هذا.

هذا ما اسمه؟ أصل المعنى، وهذا الأصل يفهمه كل مَنْ ينطق بالعربية، إذًا النحوي مهمومٌ بأصل المعنى.

طيب، ماذا لو أنا –بهذا الترتيب– قلتُ: فككتُ: فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ، فهذا الترتيب الأصلي للجملة –في النحو– في العربية، اللغة العربية الأصل فيها هو الجملة الفعلية، وليس الجملة الإسمية، في الإنجليزية ليس عندهم جملةٌ فعليةٌ!

☼ فمن الذي هو أليق بالحال الجملة الإسمية أم الفعلية؟

الجملة الفعلية، لماذا؟ لأن الأصل أن تعرف الفعل، ثم –بعد ذلك– تعرف مَنْ صنعه، ثم تعرف بعد ذلك على مَنْ وقع؟ هذا هو ترتيب منطق العقل، أن تعرف الحدَث، ثم بعده تعرف مَنْ الذي فعل الفعل، ثم تعرف على مَنْ وقع الفعل.

هذا هو منطق العقل الفقهي، يقول: والجملة في العربية جاءت وفقًا للمنطق العربي، ولذلك نقول: تركيب الجملة في الإنجليزية مخالف لمنطق العقل الفطري! وهذا يبيِّن لك ميزة هذه اللغة؛ أنها خرجت من عقلٍ فطريٍّ.

طيب، هذه الجملة قابلةٌ عندنا في العربية أن تولِّد منها جملًا، من الثلاث كلماتٍ، نقول:

- محمدٌ كتب الدرسَ.
- محمدٌ الدرسَ كتب.
- الدرسَ كتب محمدٌ.
- الدرسُ كتب محمد.

☼ **هذه الصور الجديدة ماذا تعطيك؟**

قال: تعطيك معنًى زائدًا على المعنى الأصلي.

☼ **هل النحوي يشتغل بالمعاني الزائدة؟**

يقول: لا، النحوي يشتغل فقط في أصل المعنى.

☼ **طيب، المعاني الزائدة هذه مَنْ يشتغل بها؟**

قال: عندي علمٌ آخر اسمه علم البلاغة.

علم البلاغة يختص بالمعاني الزائدة على أصل المعنى:

علم البلاغة لا يشتغل بأصل المعنى، لا علاقة له به، أنا لا علاقة لي بـ(كتب محمدٌ الدرس)، أنا لي علاقةٌ بـ(كتب الدرسَ محمدٌ)، أقول لك: ما الذي زاد بهذا التعديل في الجملة؟

أقول: زادت معاني كذا وكذا وكذا، هذه مشغلة العقل البلاغي، نسميها: المعاني الزائدة على أصل المعنى، سمِّها معانٍ زائدةً، سمِّها معانٍ إضافيةً، سمِّها معانٍ إحسانيةً، سمِّها معانٍ بيانيةً، كلها أسماءٌ لشيءٍ واحدٍ، مهمومٌ بها مَنْ؟ العقل البلاغي.

إذًا العقل البلاغي ليس مهمومًا إلَّا بما زاد على الأصل، وانتبهوا لعبارة السكَّاكي: أما الاشتغال بأصل المعنى يقول:

"**أنا لا أشتغل به، كما لا أشتغل بأصوات الحيوانات**".

يقول: أنا رجلٌ لا أشتغل بأصوات الحيوانات، لماذا؟

"**لأنه ليس فيه طليبتي**".

يعني ليس فيه ما أريده، أصوات الحيوان ليس ما يريده، وكذلك أصل المعنى –المشغول به النحوي– أنا لا أريده، فأنا لستُ مهمومًا به.

يأتي واحدٌ ويقول لي: وهل في جملة: (كتب محمدٌ الدرس) بلاغةٌ؟

نقول له: فيها بلاغةٌ، لكن اسمها بلاغة اللسان، وليست بلاغة الإنسان، عندنا نوعين من البلاغة: بلاغة اللسان: التي ورثناها عن العربية أولًا، أول مَنْ وضع اللغة -إن قيل أن اللغة موضوعةٌ وليست توقيفية- أول مَنْ وضع اللغة فهذا رجلٌ وضعها على نحوٍ معين، مطابقٍ لمقتضى العقل الفطري، هنا البلاغة، يعني بلاغته هنا: أن جاءت العبارة مطابقة لمقتضى العقل الفطري، وهذا عمل النحوي.

أما أنا فأشتغل فيما جاء مطابقًا لمقتضى الحال، وليس مقتضى العقل الفطري.

الاثنان فيهما مطابقة، هنا مطابقة لعقلٍ فطريٍ، ومسألة العقل مسألة النحوي، وهذه نقول عليها: بلاغة لسانٍ، لا فضل بك فيها، أنا كمتكلِّمٍ لا فضل لي فيها؛ لأن فضيلتي كمتكلِّمٍ بليغٍ تتحقق من ثلاث أشياءٍ، احفظهم:

أولًا: الاختيار، أي تختار بين بدائل.

ثانيًا: أن تُجري صنعةً فيما تختار.

ثالثًا: أن تريد بهذه الصنعة جمالًا.

نضرب مثالًا: امرأة ليس عندها إلَّا ثوبًا واحدًا، لما تذهب إلى فرح، ماذا ستلبس؟ ستلبسه هو أم ستختار؟ لا يوجد اختيار، لا يوجد بدائل، فهل نقول عنها أنها امرأةٌ أنيقةٌ؟ من أين تأتي الأناقة؟ ثوبها هو نفس الثوب.

لكن زوجتك، انظر خزانة ثياب زوجتك فيها كم ثوب؟ فكل حالة تختار لها الثوب الخاص بها؛ ولذلك لما تقول لها: سنذهب إلى موعد، تقول: أخبرني قبله بساعتين.

إذًا لا يكون اختيار إلَّا إذا كان هناك بدائل؛ إذًا لن تكون بليغًا إلَّا إذا كان بمقدورك أن يكون لديك للمعنى الواحد عشر كلماتٍ، وللمعنى الواحد عشـــر تراكيب، وتعرف كل كلمةٍ متى تُســـتعمَل، متى أقول: جلس، ومتى أقول: قعد.

فبالتالي لا بد أن أعرف ما الفرق بين هذا وهذا، ومتى أســـتعمل هذا؟ ومتى أستعمل هذا، هنا الاختيار.

والذي أختاره أجري فيه صـــنعةً، زوجتي اختارت ثوبًا من الخزانة، ماذا ستفعل بعد ذلك؟ ستقوم بكيه، أي ستعمل فيه صنعةً، أي تضيف إليه شيئًا من الجماليات.

ثم لماذا هي تفعل ذلك؟ لأنها تريد أن تحقق جمالًا.

فعبد القاهر يقول:

"لا فضـــيلة لك إذا تكلَّمتَ على الآخرين إلَّا إذا كان منك اختيارٌ لبدائل؛ وإلَّا إذا أجريتَ صنعةً فيما اخترت؛ وإلَّا استدركتَ" يعني أردتَ أن تدرِك **"به جمالًا"**.

لا بد أن يُحدِث كلامك في الآخرين جمالًا، فهنا تكون رجلًا بليغًا.

الدرس البلاغي هنا يشتغل على هذا، يقول: هو قال كذا، ماذا لو قال كذا؟ استبدلتُ له كلمةً بكلمةٍ، تركيبةً بتركيبةٍ، وينظر في عطاءات التركيب الأول، وعطاءات التركيب الثاني، ثم ينظر أيهما أكثر عطاءً، ما كان أكثر عطاءً كان هو الأبلغ!

إذًا أنت رجلٌ قائمٌ قاضٍ بين المتكلِّمين، تنظر في كلام فلانٍ، وكلام فلانٍ، أو الكلام الفلاني، وما يمكن أن يُقال، ولذلك دائمًا في القرآن –ونحن نشرح للطلبة تركيبًا معينًا في القرآن– نقول: ويمكن –عربيةً– أن يُقال في غير القرآن كذا، فتوازن بين ما جاء عليه القرآن، وما يمكن أن يكون في غير القرآن الكريم، انظر الفرق أين؟ هذا الفرق هو مزية الأداء القرآني، ونطبقه مع الشعراء، ومع كل بيانٍ بليغٍ.

فالدرس البلاغي درسٌ مهمومٌ بالمعاني الإحسانية، المعنى الإحساني هو المعنى الذي لن تحصل عليه إلَّا بمزيد جُهدٍ، حُسن تبصُّر، وبذوقٍ رشيدٍ، لا بد أن تكون رجلًا ذوَّاقًا؛ لأن من مكونات شخصية أي إنسانٍ يشتغل بلاغة، أول شيءٍ نقيسه عنده موهبة التذوق.

التذوق نوعان:

تذوق نفسي: وهذا نستعمله في الشعر وفي كلام الناس، في الأدب.

تذوق روحي: وهذا نستعمله في بيان النبوة.

إذًا الذوق نوعان، ما معنى هذا؟ يعني ممكن واحد يكون علَّامة الدنيا في شعر صلاح عبد الصبور، ذواقة، وممتع، ثم تأتي به إلى آيةٍ من القرآن، تجده وحمار أبيه سواء! لماذا؟ لأن لديه الذوق النفسي البشري هذا، لكن ليس لديه الذوق الإيماني، فبالتالي لا يفهم شيئًا.

☼ من أين يأتي الذوق الإيماني؟

يأتي من طريق علاقتك بربك.

وبالتالي يقول لك: من أدواتك بلاغيًّا أن تكون علاقتك بربك حسنةً، حتى ينقلك من دائرة التذوق النفسي، الذي يشترك فيه الشقي والتقي، والطائع والعاصي، ويشترك فيه كل الناس، إلى مقامٍ لا يكون إلَّا لأهل الله!

لذلك يقول القرآن، في البداية، في سورة البقرة، انتبهوا! في أول السورة كلَّمك عن القرآن، يقول لك ما القرآن؟ قال:

﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾[البقرة:2].

الذي هو ليس فوقه، وليس مثله كتاب! ثم هذا الكتاب معصومٌ من الخطأ:

﴿**لا رَيْبَ فِيهِ**﴾[البقرة:2].

لكن انتبه، لن يكون لك هُدًى إلَّا إذا كنت من المتقين:

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:2].

فإذا كنتَ من غير المتقين فهو عليهم عمًى، القرآن نورٌ لأهل التقوى؛ لكنه عمًى وظلامٌ على أهل الباطل!

كلامٌ واحدٌ يصلُح أن يكون شمسًا تضيء، ونفس الكلام يكون ظلامًا دامسًا على الآخرين.

☼ كيف يكون الكلام شمسًا تضيء أو ظلامًا دامسًا؟

يكون ذلك بحسب حال المتلقِّي، فلو أنه مُتلقٍّ عن الله يكون الكلام نورًا، لا يتلقَّى عن الله يكون ظلامًا.

☼ ما معنى يتلقَّى الكلام عن الله؟

إذا كنتَ تقرأ، وأنت مستحضرٌ جلال الألوهية، وجمال الربوبية، تفهم جيدًا جدًّا، ومستحضرٌ جدًّا أن الذي تسمع، والذي تقرأ إنما هو كلام الله، أن الله يتكلَّم، فإذا كان الله يتكلَّم أيمكنك أن تعبث؟! يمكنك أن تشاهد التلفاز وأنت تقرأ القرآن مثلًا؟!

هل يمكنك أن تعبث لو رئيس الدولة يكلِّمك، ليس رئيس الدولة، أمين شرطة يكلِّمك، هل أنت من الممكن أن تنصرف عنه بعقلك، فكيف

والله يكلِّمك؟! فلذلك لا تشعر بجلال القرآن الكريم! نقرأه ونسمعه كأني أقرأ مقالًا لأنيس منصور! لماذا؟ لأني لست مستحضرًا لجلال لمن يتكلَّم أصلًا!

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[الحشر:21].

لماذا؟ لأنه استحضر جلال الألوهية! ولما ينزل على رسول الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- حين ينزل، ماذا يحدث لرسول الله؟ لأنه استحضارٌ لجلال الألوهية، لأنه ثقيلٌ جدًّا.

هل هو ثقيلٌ علينا؟ لا، ولا فرق بينه وبين أي كلامٍ نقرأه! لماذا؟ لأننا لا نستحضر جلال ألوهية مَنْ تكلَّم به! وهذا بسبب الذنوب! ولذلك شُرع لك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن تقرأ القرآن.

علم النقد:

هناك علمٌ آخر بعد علم البلاغة، لكن لا علاقة له بالوحي، الذي هو علم النقد.

الفرق بين علم البلاغة، وعلم النقد:

علم البلاغة أداة، فكما كان علم النحو أداة للبلاغي، علم البلاغة أداة للناقد، فالناقد أعلى من البلاغي؛ لأن الناقد يشتغل قاضيًا، يحكُم فيقول: هذا حسنٌ، وهذا قبيحٌ، هذا أعلى، وهذا أدنى.

أما البلاغي فلا علاقة له بذلك، البلاغي يكشف، يستخرج، يستنبط المكنوز في البيان الذي بين يديه فقط، ثم لا يحكم عليه.

☼ مَنْ الذي يتولَّى الحكم على البيان؟

الناقد.

لكن انتبه! نحن نشتغل مع القرآن، والقرآن لا يُتعامل معه بعلم النقد، علم النقد منحصرٌ في البيان البشري.

أما البلاغة فتتعامل مع البيان البشري، ومع بيان الوحي قرآنًا وسُنَّةً.

فدائمًا نحرص على أن نقول: بيان الوحي قرآنًا وسُنةً؛ لكي نغرس هذا في عقول طلابنا أن السُّنة وحيٌ، فلا تقل فقط: بيان القرآن، قل: بيان الوحي قرآنًا وسُنةً، وبالتالي مَنْ فرَّط في السُّنَّة فقد فرَّط في القرآن!

هذا اسمه تمهيدٌ لهذا العلم، للقول في هذا العلم، علم البلاغة موجودٌ في كل أمَّةٍ لها لســـانٌ تتكلَّم به، ولديها حضـــارةٌ، اللغة الإنجليزية فيها علم بلاغة، الفرنسية، الفارسية، كل العلوم، علوم الحضارات فيها علم بلاغةٍ.

لكن العلم الذي ليس كمثله علم هو علم البلاغة العربية، لماذا؟ بسبب النشـأة، وبسـبب الغاية، علم البلاغة نشـأ علمًا قرآنيًّا، نشـأ لخدمة القرآن، بخلاف النحو الذي نشـأ لخدمة اللسـان، أن يعصـم لسـانك عن الخطأ إذا تكلَّمتَ، أما علم البلاغة فنشـــأ ليعصـــم عقلك وقلبك من الخطأ في فهم القرآن إذا قرأته.

ليست وظيفة علم البلاغة أن أجعلك شاعرًا، هذه ليست وظيفته، ولا لأن تصـــبح خطيبًا مفوَّهًا، لا، هذا اسمه بليغٌ وليس بلاغيًّا، اسمه بليغٌ، امرؤ القيس بليغٌ، ولكنه ليس بلاغيًّا، رسـول الله -صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم- بليغٌ وليس بلاغيًّا، الرسـول لا يعرف تشـبيه، ولا اسـتعارة مكنية، ولا الصـحابة يعرفون.

فعلم البلاغة إذًا علمٌ جاء ليعصم فؤادك من أن يسيء فهم كتاب الله، وسُنة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ليس له أكثر من هذا.

وأنا قلتُ: أن يعصـــم فؤادك؛ لأننا نعقل ونفقه ونفهم، وكذا وكذا بقلوبنا، ليس هناك ما يُســـمَّى عقل عندنا، ليس بداخلي أداة اسمها عقل، العقل هذا عملٌ من أعمال القلب:

﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾[الأعراف:179].

إذًا أداة التعقل عندنا هو القلب، فليس هناك أداة داخلك اسمها العقل، هذا مصدرٌ لفعلٍ من أفعال القلب.

مثل الفقه مصـــدرٌ لفعلٍ من أفعال القلب، مثل الفهم، طبعًا هي مراتب، نســـميها عندنا: مراتب الإدراك، يبدأ الإدراك بالتعقل، تعقل يعني تربط مثل عقال إخواننا الخليجيين، أو عقال الناقة، تربط الشـيء وتمسكه، وتحتفظ به، وماذا بعد؟ لا شـيء، أنت اصـطدت طائرًا فأمسـكتَ به، لو أنك جائع فهل شبعتَ؟

وكذلك إذا أخذتَ المعرفة، عقلتها في عقلك، ما الذي ســيحدث؟ لا شيء، إذًا أنت قبل أن تعقل مثلك بعد أن عقلتَ!

فالعقل هو ضبط الأشياء، والإمساك بها حتى لا تتفلَّت، ثم تُعمِل فيها قلبك مفكِّرًا، فإذا فكرت انتهيتَ إلى مرحلةٍ اسمها مرحلة الفقه، صـــرت فقيهًا، فإذا ارتقيتَ صِرتَ فهيمًا، فمرحلة الفهم أعلى مراحل الإدراك.

إذًا أول مرحلةٍ عندي أن أعقل المعرفة، أحفظها، أحفظ النص جيدًا جدًّا، ثم أبدأ أفكر فيه، يقول لك: افهم أولًا ثم احفظ، أقول له: خطأ واللهِ! كيف أفكر في شيءٍ لا أمسكه؟

ولذلك من نعم الله علينا أن جعل قدرة الأطفال إلى سن الخامسة عشر في الحفظ أعلى بكثيرٍ، بعد الخامسة عشر تبدأ تضعف مسألة القدرة على الحفظ، تبدأ مرحلة أن يبدأ في التفكير، فمســـألة أن تفهم ثم تحفظ، تقول له: أنت عكســـتَ المســـألة، امســـك الطائر ثم اذبحه، إذًا نحن أولًا نحفظ النص، وبعد الحفظ نفكر في النص.

هذا التفكير، وانتبه لكلمة تفكير، جاءت من كلمة (فك)، والتفكير قال: في المعنويات، وفك جزئيات المعنوي أعسر من فك جزئيات الحسي، ولهذا جاء له بـ(الراء): (فكَّر)، فالراء حرف تكـرار، الحرف الوحيد في اللغة العربية الذي من صفاته التكرار.

فالأشـــياء المعنوية لكي تفككها تحتاج أن تفككه مرات كثيرة، فدل على كثرة تحويل الشيء الكلي إلى جزئيات، ولا بد أن يكون أكثر من مرة، طيب.

☼ لماذا تحوِّل الكلي إلى جزئي؟

قال: لأنظر إلى الجزئي على حاله قبل التركيب.

مثل الميكانيكي، يخرج القطعة وينظر إليها ليرى العيب، ثم يركِّبها، فيعرف حالها قبل التركيب وهي فريدة، وحالها لما تجتمع.

فهذا هو التركيب، نسـميه التحليل، التفكير عندنا ثلاث مراحل، لكي تفكر تفكيرًا علميًّـا، كـل النـاس تفكِّر، ولكن لكي تفكِّر تفكيرًا علميًّـا، مطلوب منك ثلاث أشياء:

- تحلِّل، أي تفكك الأشياء.

- ثم تؤوِّل، تنظر في مآل الشي، هذا الكلام سيؤول بي إلى معنى كذا.

- ثم تعلِّل، لماذا سيؤول بي إلى معنى كذا؟

إذًا التفكير العلمي لا بد وأن تمر بثلاثة مراحل، هذا بالتدريب سيكون ســــهلًا عليك، ســـتحلِّل الشـــيء، ثم تؤوِّله، أي تنظر مآلات المعنى أين ســتذهب، ثم تنظر لماذا وصــل هذا الكلام إلى معنى كذا، ونســميه تعليل المعنى، فهذا اسمه تفكيرٌ، قال تعالى:

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الرعد:3].

حتى في آية الزواج:

﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الروم:21].

انتبه لكلمة: ﴿**لَآيَاتٍ**﴾[الروم:21]. آية واحدة أم آيات كثيرة؟ لكن في آيات أخرى تنتهي بكلمة (آية):

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:77].

لما يقول: ﴿لَآيَاتٍ﴾[الروم:21]. إذًا فمعنى هذا أن فيها آياتٌ كثيرةٌ جدًّا.

☼ آياتٌ على ماذا؟

على وحدانية الله، وعلى كمال ربوبيته.

فأنت وأنت تقرأ الآية إذا لم يستشعر قلبك معالم جلال الألوهية فيك، ومعالم جمال الربوبية فيك، فما قرأتَ! أنت تأخذ ثوابك على قدر استحضارك، وليس على قدر نطقك، لو نطقتَ بغير تفكيرٍ، هم عشر حسنات للحرف، وهذا طليبة الدهماء، يعني سواد الناس يقول: يكفي، الحرف بعشرة، هذا جيد.

لكن النبلاء لا! النبيل لا يرضى الحرف بعشرة، يقول: ولماذا وأنا من الممكن أن أجعل الحرف بألف؟

سيدنا رسول الله يقول هذا: «إِذَا سَألْتُم اللهَ فَاسْألُوهُ الفِرْدَوْس».

ناس تقول لك: يا رب فقط نكون حتى بوابين في الجنة! لماذا تدخلها بوابًا؟! الرسول يقول لك: اطلب الفردوس، ولماذا ترضى بعشر حسنات؟

لماذا ترضى بحرف واحد أن تأخذ عشر حسنات، وأخوك بجوارك يحصل على الحرف ألف حسنة؟!

لو قلتُ لك: تعال اشتغل عندي، ولك في الساعة عشرة جنيهات، وجاء الشيخ خالد وقال لك: سأعطيك في الساعة ألف جنيه، ستبقى معي؟ أم تذهب للشيخ خالد؟

فلذلك جهِّز نفسك على أنك إذا قرأتَ فكرتَ، وعلى قدر ما تفكِّر تحصد حسنات، إذًا ليس المهم أن تقرأ كم صفحة في رمضان، رمضان آتٍ، لا تقل لي: أنا قرأتُ القرآن عشر مراتٍ، احصر عدد الحسنات التي حصدتها، وهناك آخر لن يقرأ القرآن في رمضان إلَّا مرةً واحدةً، محصول حسناته أضعاف أضعاف حسناتك! لماذا؟ لأنه لا يقيس القراءة بالأوراق! يقيس القراءة بالأزمان.

لا تقل لي: أنا قرأت خمسة عشر صفحة، قل لي: أنا قرأتُ خمس عشرة ساعة، لا تقل لي: قرأت اليوم خمسة أجزاء، أنا ممكن أقرأهم لك في ساعتين ونصف، واحد آخر يقرأ الخمس أجزاء في عشر ساعات؛ لأن كل كلمةٍ يقف عندها، ويتدبَّر ويستطعم، أتسمع كلمة يستطعم هذه؟ فإن المعنى الذي يأتيك كأنك تأكله!

فهذا يحتاج إلى تدريب، لا يأتيك من أول مرةٍ، فلا بد أن تضع في خطتك، في برنامجك أنك يلزم أن تصل لمرحلة استطعامي للمعنى القرآني،

لازم تأكل المعنى القرآني، كيف؟ كما تشرب الشاي وتحس بطعمه، أيضًا لما تضع المعنى القرآني، وتستشعره بقلبك؛ فأنت استطعمتَ، وأول استطعام للمعنى أن تحس بجلال الله! تحس أنك عبدٌ لا حول لك ولا قوة، اللحظة التي تصل فيها لهذا، فأنت قد بدأتَ الطريق!

هذا هو عمل علم البلاغة، همه الأكبر أن يحوِّلك من إنسانٍ عبدٍ، مجرد عبدٍ إلى إنسانٍ عابدٍ، في مقام العبودية، ينقلك من مقام: فإنه يراك، نسميه مقام المراقبة، إلى مقام: فإنك تراه! فهذا مقام الشهود!

فعلم البلاغة يحاول أن ينقلك –إن كنتَ من أهل التقوى– من مقام مراقبة الله، وخشية الله، إلى مقام الأنس، فإنك تراه!

فتخيَّل أنك تقف أمام رئيس الجمهورية، أو رئيس الداخلية مثلًا، ما الذي يحدث؟ تشعر بجسمك؟ لا أظن، فكيف إذا كنتَ تدرك أنك بين يدي الله، وأنت تسمع كلام الله!

كل هذه مقاماتٌ نحن نحاول أن نطوف حول حماها بهذا العلم؛ لأنه هو العلم الذي طلبيته، بغيته، مراده من القرآن الكريم إنما هو.. أنا لا يعنيني التشبيه من حيث هو تشبيهٌ، ولا الاستعارة من حيث كونها استعارة، ولا التقديم من حيث هو تقديم، أنا يعنيني المعنى الذي وراء ذلك، أنا أبحث عن المعاني، معاني القرآن التي تليق بالله سبحانه وتعالى.

هذا العلم -كما قلتُ لك- نشأ نشأةً قرآنيةً، وغايته أيضًا القرآن والسُّنَّة، لكن كل علم له روافد يستمد منها، فعلم البلاغة له أربعة روافد، يلزم أن يكون لك نصيب من كل رافدٍ، الرافد هو الجدول الصغير الذي يصب في النهر:

أول رافد: هو فقه أصول اللسان العربي:

إذًا أنت رجلٌ متمكنٌ في هذا اللسان، تدرس جيدًا جدًّا هذا اللسان على أهله، فقه أصول اللسان العربي في الإبانة عن المعاني.

وإخواننا التي يجرون في الموافقات، ويجرون في الرسالة، ويجرون في أصول الفقه للشيخ أحمد عبد المرضي، يقولون: إن الفقيه لا يصلُح أن يكون فقيهًا إلَّا إذا بلغ درجة الاجتهاد في العربية، يعني لن تكون فقيهًا إلَّا إذا كنتَ مجتهدًا، ليس فقط أن تعرف اللغة، لا بد وأن تكون مجتهدًا في العربية حتى تستطيع أن تفهم.

لهذا كل الأحكام التي نفتي بها أحكامٌ قيلت قبل ذلك، قيلت لزمانٍ من عشرة قرونٍ، نطبِّق الأحكام الشرعية -في غير الحلال والحرام طبعًا- التي كانت للزمان عشر قرون نطبِّقها الآن.

تطلَّعوا في القرآن جيدًا، تطلَّعوا في السُّـنَّة جيدًا، واسـتخرجوا منهما ما يلائم هـذا الزمـان، هـل القرآن كـان للقرن الأول والثـاني والثـالـث والخامس الهجري؟ القرآن كان لكل القرون، والقرون تتغيَّر، وأحوال الناس تتغيَّر.

☼ فلِم تطبِّق عَليَّ أحكام ما قبل القرن الســـابع وأنا في القرن السابع عشر؟!

لأني أنا كفقيهٍ لا أفهم العربية كما فهمها الشافعي.

الشافعي كان أولًا عالم لغةٍ، هو الذي كان يروي الشعر، لم يكن يدرس فقهًا في البداية، كان يدرس اللغة، ويروي الأشـــعار، فصـــار رجلًا غايةً في علم اللغة، وصار مصدرًا من مصادرها، ليس مجرد عالمٍ، ثم لما نظر في الفقه قال الذي قال!

هـذا يبيِّن لـك كيف أنه يجب أن يكون من برنامجك التعليمي أن تُعنَى جيدًا بعلوم اللغة؛ لأنها هي مفاتيح الفهم، إذًا أول شيء: علوم العربية.

الرافد الثاني: أصول فقه العقيدة الإسلامية:

لا أعني علم الكلام، العقيـدة كمـا كـانـت في زمن رســـول الله، علم الكلام لا يخاطب المســـلمين، لم ينشـــأ علم الكلام ليخاطب المســـلمين، لا يحتاج إلى علم الكلام مَنْ كان مسلمًا.

المسلم إذا قيل له: قال الله، قال الرسول، قال: سمعنا وأطعنا، لا يحتاج أبدًا إلى جدل المعتزلة، وجدل الأشاعرة، هذا علمٌ نشأ لجدال غير المسلم! فإذا نُقل من هذا الميدان إلى ميدان المسلمين فهذا كفرٌ بالنعمة!

ليس العيب في أن ندرس علم الكلام، العيب في أن تستعمله في غير مجاله.

☼ لكن هل ندرس علم الكلام؟

يجب أن تدرسه؛ لأنه علم جدلٍ، وغير المسلم لا يصلُح أن تجادله، أو تستشهد عليه بالقرآن، سيقول لك: أنا لا أؤمن به، فكيف تقول لي: قال الله، قل لي: قال العقل، فأنا أؤمن بالعقل.

فعلم الكلام هو علم العقل، الجدال العقلي، ونحن نحتاجه، لكن ليس لديار المسلمين، إنما نحتاجه لغيرنا.

نحن نريد –من حيث أننا مسلمون– علم العقيدة، نريد علم العقيدة كما كان عليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان عليه أصحابه رضوان الله عليهم، والتابعون، في القرون الثلاثة الأُوَل.

فلا تدخل في علم الكلام، فهو ليس لنا، ابعد عنه تمامًا! هذا لفئةٍ من الناس متخصصة في حوار غير المسلم.

الرافد الثالث: علم أصول الفقه:

أما علم أصول الفقه فهو يلزمك حتمًا، فالبلاغي الذي لا يعرف شيئًا في أصول الفقه لن يكون إلَّا حامل علمٍ فقط، لكن لا يستطيع أن يستثمر هذا الكتاب.

الرافد الرابع: علم فقه الإحسان:

إذًا عندنا علم شريعةٍ، ثم علم الإحسان، الإحسان لا أقصد به علم التصوف بصورته الحالية، فهذا لا علاقة له بالإحسان، هذه فلسفةٌ لا دخل لنا بها.

نحن نتكلَّم عن الإحسان الذي كان عليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، كان عليه بِشر الحافي، كان عليه المحاسبي، كان عليه الفضيل بن عياض، هؤلاء الناس الذين كان التصوف عندهم سلوك وليس فلسفة كفلسفة ابن عربي، وفلسفة ابن الفارض، وفلسفة السهرودي، هذا ليس تصوفًا، هذه فلسفةٌ، ولا علاقة لها بالتصوف.

أحمد بن حنبل صوفي من الطراز الأول، لكن أي تصوفٍ؟ تصوفٌ إسلاميٌّ، فنحن نريد هذا، نريد لما نقرأ آيةً ننظر إلى المعنى الأعلى.

الناس كلها تفهم أن أخت بشــر الحافي لما جاءت إلى أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـــ وقالت: [**إنا نغزل على سطوحنا بشعلة الملك، هل يجوز لنا الغزل في شـعاعها، وقد وقع علينا المشـاعل الظاهرية؟ فقال: من أنتِ عافاك الله؟ قالت: أخت بشـر الحافي، فبكى أحمد، وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها**].

لماذا؟ لا يليق بهم، يليق بغيرهم.

وكذلك بِشر الحافي لما الإمام أحمد سيسأله:

- **في كم زكاة أربعين شاة؟**

- قال: عندكم أم عندنا؟

أي عند الفقهاء أم عندي؟

- **قال: عند الفقهاء.**

- قال: في كل أربعين شاةٌ.

- **قال: فعندكم؟**

- قال: المال كله لله، فأنا لا أملكه، فكيف أخرج عليه زكاةً؟

هذا هو الذي نريده، الإحسان، لكن أنا الجُبَّة، وما فوق الأرض غيري، هذا كلامٌ يفسد عقلك، ولا يُفضي بك إلى خيرٍ، انظر الموالد التي يقيمونها في الحسين، أهؤلاء صوفية؟!

فنحن نحتاج أن يكون لدينا بعض شيءٍ من:

- **علوم اللغة.**
- **علم العقيدة.**
- **علم أصول الفقه.**
- **علم الإحسان.**

نقرأ كثيرًا في أخبار هؤلاء الكبار؛ لكي تعرف أن هناك أناس أحسن منك بكثيرٍ، أنت لن تتقدَّم إلَّا إذا عرفتَ أن هناك أناس أفضل منك، لو شعرت أنك شيءٌ كبيرٌ، لن تتقدَّم، يوم أن أعرف أني علَّامة! يجب أن تعرف أنك قد تخطئ فيما لا يخطئ فيه تلميذٌ في المرحلة الثانوية! فيكون راسخًا في عقلك هذا الكلام.

هذا العلم مر بثلاث مراحل، بثلاث مدارس، أسميها مدارس التأليف في علم البلاغة.

☼ لماذا تقول هذا الكلام؟

لأنه يجب عليك -قبل أن تقرأ كتاب البلاغة- أن تعرف إلى أي مدرسةٍ ينتمي.

هم ثلاث مدارس، وكل مدرسةٍ لها خصوصيةٌ، وكل مدرسةٍ لها طريقة قراءةٍ، طريقة القراءة تتوقف على الهدف من المدرسة، إلى ماذا تهدف المدرسة؟ تهدف إلى كذا، فلكي تصل إليه يلزم أن تقرأ الكتاب بطريقةٍ معينةٍ، لن أقرأ (المطوَّل) كما أقرأ (البيان والتبيين)! فإن قرأتَ الاثنين لن أصل لشيءٍ، فبالتالي أعرف إلى أي مدرسةٍ ينتمي هذا الكتاب؟ هم ثلاث مدارس:

(1) مدرسة (البيان والتبيين).
(2) مدرسة عبد القاهر (دلائل الإعجاز والأسرار).
(3) مدرسة (المفتاح).

☼ هل من الممكن أن أتناول مباشرةً مدرسة المفتاح؟

أقول لك: هل من الممكن لك -وأنت لم تدخل المرحلة الابتدائية- أن تدخل جامعة الأزهر؟

كل مدرسةٍ تُسْلِم نتاجها إلى المدرسة التي بعدها، مدرسة (البيان والتبيين)، لازم يكون عندك الكتاب، يكون لك وردٌ فيه، فهمت أم لم تفهم؟ لكن أكثر ما تتلبَّس عند النصوص البيانية التي جاء بها، وسمَّاه البيان،

يعني النصوص البليغة، يأتيك بشعرٍ، يأتيك بكلام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يأتيك بخُطبةٍ.

شـــيخنا هارون –عليه رحمة الله- ضـــبط لنا الكلام، فلما يتكلَّم في خُطبة، اعتنِ بقراءتها، هذا البيان.

☼ **وما التبيين؟**

التبيين هو التوضيح.

إذًا البيان وشرح البيان.

الجاحظ ماذا يفعل؟ أغلب الكتاب بيانٌ، قلَّما يتعرَّض لمســألة التبيين، يقول لك: أنا أريدك أن تعيش مع النص البليغ أكثر، تتضلَّع منه، ولما تحس بجماله، ستريد أن تعرف هذا مكوَّن من ماذا؟

لو أنت رجل كيمياء –كلية العلوم- وتريد أن تحلِّل ثمرة تفاح، لازم لك أن تأكلها أولًا، لكي تعرف ما الذي بها، لكن لا أحلِّلها قبل أن أدرك ما بها.

فأولًا أنا أقرأ البيان، أقرأ الشعر، فهمتَ أو لم تفهم، اعمل مخادنة للبيان البليغ، تعرفون كلمة مخادنة؟ مخادنة يعني مصــاحبةٌ صــافيةٌ مســتمرةٌ: ﴿**وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**﴾[النساء:25].

المقصـود أن تصـاحب البيان، ولا تصـاحب غيره، هذا الخِدْن، فالخِدْن هو: صـاحبك الصـفي الملازم لك أبدًا، وهذا غير الصـديق، فمخادنة النص معناه أن تتشرَّب النص لكي يصقلك النص.

في الأول أنت تســـكن النص، أي تمكث مع النص، فالنص إذا أنس بك سَكَنَك، أي اتخذك سكنًا، فتجد نفسك تتعايش مع النص، تفكر فيه وأنت نائم، لأنك مشغولٌ بالعلم.

فأرجو أن نقرأ في كتاب (البيان والتبيين) النصـــوص البيانية البليغة التي فيه، نقرأها كثيرًا، ونقرأ تعليقاته السـريعة على هذه النصـوص، هذه مدرسـةٌ، عُظم الكتاب نصوص، وقلَّما تجد فيه تعليقًا على النصوص، فهذا مهمٌّ أنك تعيش فيه مرحلةً طويلةً.

بعد ذلك تنتقل إلى مرحلة اســـتخراج ما في النص، هذه مرحلة عبد القاهر، مدرســة عبد القاهر، دلائل الإعجاز وأســرار البلاغة، هو لا يكثر من النصـوص، لكن يكثر من تحليل النص، فنقلك من مرحلة مخادنة النص، إلى مرحلة التفكير في النص، وبهذا تتم البلاغة.

تأتي –بعد ذلك– مدرســـة المفتاح، تقول لك: الكلام الذي قاله عبد القاهر كلامٌ غير منسَّقٍ.

السكَّاكي ينظِّم، السكَّاكي لم يضِف إلى علم البلاغة جديدًا، فالذي أضاف إلى التفكير في علم البلاغة هو عبد القاهر، استخرَج من البيان – الذي تكلَّم فيه الجاحظ– ما فيه من جماليات، فوضع لنا أصولًا: كيف نفكِّر؟ كيف نحلِّل؟ كيف نتذوَّق؟

عبد القاهر لأن كتابه ليس كتابًا علميًّا فقط، بل أيضًا كتابٌ تربويٌّ، فهو من وقتٍ لآخر يحلِّل لك بيتًا، يأتي بثلاثة أو أربعة أبيات ويتركك، فتتمنى لو أنه كان يحلِّل، لكن هو تركك أنت لتحلِّل، لكي تتذوَّق وتشرب عصارة التفكير، للتفكير لذة، أبو حنيفة يقول: "**إن للعلم لذةً لو علِمها الملوك لجالدونا عليه بالسيوف**".

إذًا في هذه الحالة، مَنْ يحرمك من أن تفكِّر يحرمك من إنسانيتك! المدرس الذي يشرح لك كل شيءٍ على السبورة يقول لك: أنا أنهي لك لأنك لا تستطيع أن تفكِّر؛ فأنا سأفكِّر لك، إذًا هو يخدمك أم يهدمك؟ المدرس الذي يشرح كل الأمثلة، وكل الشواهد، وكل المسائل على السبورة، والطلاب شغلتهم أن يكتبوا وراءه، ويحفظوا ما قاله، هو لا يبني عقولًا، هو يهدم عقولًا؛ لأنه لم يعطِك الفرصة لأن تفكِّر.

فلو عندي الدرس فيه خمسة نصوصٍ، أنا أشرح لك اثنين، وأترك لك ثلاثة، ولما أختبرك أختبرك في الثلاثة، هذا لو كنتُ أريد أن أبنيكَ.

فمقدار النصــوص التي حلَّلها عبد القاهر قليلٌ جدًّا، وعدد النصــوص التي لم يحلِّلها كثيرٌ جدًّا، لكنك إن فقهتَ طريقته في التحليل اســتطعتَ أن تستخدمها فيما لم يحلله.

ولذلك كُتب عبد القاهر، وما بعده، لما نقرأها نقرأها ثلاثة مراتٍ، ومنها كتاب (المطوَّل)، فنقرأ الدرس ثلاث مراتٍ:

- **المرة الأولى**: أعرف ما به من معلومات لتحصيل المعرفة.

- **والمرة الثانية**: لكي أعرف كيف فكَّر العالم في المســألة، فأنت تقرأ المســألة، يعجبك كلام الرجل، احفظه، ثم ابحث عن الطريقة التي صــنع بها هذه المعرفة، لكي تتعلَّم مثله، وتعمل مثله.

- **المرة الثالثة**: كيف عبَّر عن تفكيره، هو فكَّر، وأصــــبح عنده ما نسميه بالرؤية العلمية للمسألة، فعندنا نوعان من الرؤية:

- **رؤيةٌ علميةٌ في باب العلم**.
- **رؤيةٌ شعريةٌ للشعراء والأدباء**.

أي شـــــاعرٍ يرى أي حدثٍ في الحياة يتعامل معه ويراه بطريقةٍ غير الطريقة التي أراها أنا، لا قدَّر الله لو يوجد في الشــــارع الآن حادثٌ، أنا سأقف، وهو سيقف، لكن شعوره مع الحدث لن يكون مثل شعوري، أنا

أتألم، وهو يعيش في عالمٍ آخر، رؤية شـــعرية، يراه بطريقة خاصـــة به، ثم ينظمها في قصيدةٍ، وأنا أبكي على الحادث.

فالعلماء لديهم رؤيةٌ علميةٌ في المســألة، ينظر في المســألة، ويبدأ في التفكير، وتتكون لديه رؤيةٌ علميةٌ، هذه الرؤية العلمية –التي في قلبه أو في عقله– تحتاج إلى بيانٍ يعبِّر به، أتعلَّم منه كيف يعبِّر عمَّا فكَّر فيه.

إذًا ثلاث مراتٍ، مرة تحصِّـل معرفةً، مرة تحصِّـل طريقة تفكير وصـناعة المعرفة، ومرة طريقة عرض المعرفة والإبانة عنها.

لو أنت درستَ بهذه الطريقة، ستستغرق الصفحة الواحدة منك يومًا كاملًا؛ لكن بعد قليلٍ ستصير شيئًا مذكورًا، لكن ممكن أن تحفظ (المطوَّل) وتخرج وكأنك لم تفعل شيئًا! أنت حافظٌ للمطوَّل، فإن طلبتَ منه أن يؤلِّف مطوَّلًا، يقول لك: لا أســتطيع، لماذا؟ لأنه حفظ، ولم يعرف كيف صـــنع صاحب المطوَّل المطوَّل؟ وكيف عبَّر عن المطوَّل؟

طريقة كلام المطوَّل غير طريقة كلام الخطيب، غير طريقة كلام عبد القاهر، فأهل العلم بالشـــيء بمجرد أن تقدِّم له نص من كتاب المطوَّل في ورقةٍ، بمجرد أن يقرأها ســيقول لك: هذا النص من كتاب المطوَّل، تأتي له بنصٍّ آخر من كتاب عبد القاهر، يقول لك: هذا شـبيهٌ بكلام عبد القاهر؛ لأنه عرف طريقة كل واحدٍ في الكلام.

فكما أننا نختلف في أصـــواتنا، فالعلماء مختلفون في طرائق الإبانة عن معـانيهم، فنحن لا نتعلَّم من العـالم مجرد معلومـات، وإنمـا نتعلَّم منـه معلومات، وطرائق تفكيرٍ، وطرائق تعبير، بهذه الصـورة تستطيع أن تكون في يومٍ من الأيام شيئًا مذكورًا.

هذا الكتاب (المطوَّل) ينتمي إلى مدرسة المفتاح، المفتاح وظيفتها تحويل العلم غير المنظم إلى علمٍ منظمٍ، إلى مدرسـةٍ تنظيميةٍ بحتةٍ، لكن لا تضـيف إلى علم البلاغة وقواعده جديدًا، ولكن أنت لا تستطيع أن تقرأ عبد القاهر إلَّا إذا سبق لك أن قرأتَ كتابًا يسيرًا من كتب مدرسة المفتاح، التي ندرسها في الثانوي.

نحن لو قررنا على طلبة الثانوي كتاب الدلائل، لن ينجح أي طالبٍ! ولن يســتطيع أي أســتاذٍ أن يشــرح! فنحن نعطيه بدايةً كتابًا صــغيرًا جدًّا يعرف به القواعد، ونقول له: هذا الكتاب اذهب به إلى دلائل الإعجاز ستبدأ في الفهم، ثم –بعد ذلك– عُد إلى مدرسة المفتاح.

لن تستطيع أن تفهم المطوَّل إلَّا إذا كانت لك علاقة بدلائل الإعجاز، وبأســـرار البلاغة، يلزم لك أن تكون قد قرأتَ جيدًا في الاثنين، ولكي تستطيع أن تذهب إلى هذا الكتاب.

فالسكَّاكي قدَّم خدمةً عاليةً جدًّا لعلم البلاغة، حوَّله من علم ومعرفة غير منظمةٍ إلى علمٍ منظمٍ مُقنَّن، فيسَّر الأمر على الناس، يسَّر الله عليه أمره يوم القيامة.

فالذين يسبُّون الرجل! إخوانًا في كلية الآداب والجامعات الأخر ليس له همٌّ إلَّا أن يسب الرجل! ويكون قد أفسد البلاغة وعقَّدها.

الرجل ما جاء ليكلِّمك في البلاغة، الرجل جاء لينظِّمها لك، لكي لما تنتقل من مسألةٍ تستطيع أن تنتقل إلى التي بعدها، إلى التي بعدها، ولذلك نظَّم البلاغة إلى ثلاثة علومٍ.

لا تستطيع أنت أن تقرأ علم البيان وأنت لا تعرف علم المعاني، ولا تستطيع أن تقرأ علم البديع إلَّا إذا كنت تعرف الاثنين، ولذلك أصعب العلوم هو علم البديع!

الطالب الذي يُعد رسالة ماجستير أو دكتوراه نقول له: لو ستقوم بعمل دراسةٍ في علم البديع فأنت أوقعتَ نفسك في (مطب)؛ لأنك ستحمل هم ثلاثة علومٍ وليس علمًا واحدًا.

ولذلك لا يُقدِم على الدراسة في هذا العلم –علم البديع- إلَّا المتمكنين من علم المعاني، وعلم البيان.

مَنْ الذي نظَّم هذا؟ مَنْ الذي قال: علم المعاني يكون فيه مسألة كذا، وكذا، وكذا، وتنظر إليه من جهة كذا، علم البيان في مسألة كذا وكذا، وتنظر إليها من جهة كذا، علم البديع يكون في مسألة كذا، وتنظر إليه من جهة كذا، الذي نظَّم هذا هو السكَّاكي.

السكَّاكي قبل أن يبلغ سن الثلاثين لم يكن يقرأ ويكتب، كان أمِّيًّا! أنا أقول هذا لأجل علو الهمة، عمره ثلاثة وثلاثين سنة، وكان لا يقرأ، ولا يكتب، وكان حدَّادًا، فصنع يومًا للأمير دواة حبرٍ، كانت الدواة لو أمَلتها تُغلق تلقائيًّا، فذهب إلى الأمير ليعطيه الدواة، فوجد رجلًا جالسًا بجوار الأمير على تخته، فتعجَّب! إن الناس تقف أمام الأمير، وهذا جالسٌ، فقال: مَنْ هذا؟ فقال: هذا رجلٌ عالمٌ من علماءِ الأمَّة، فقال: أهذا شأن العلماءِ؟ فبدأ يتعلَّم، فكتب لنا (مفتاح العلوم)!

انتبه! ماذا سمَّاه؟ (مفتاح العلوم)، أم كتاب العلوم؟ هو ماذا يقدِّم لك؟ مفتاح الخزائن، حدَّاد، يصنع المفاتيح، يقول: كتابي هذا ليس فيه علم، كتابي هذا مفتاح خزانة، لو احتفظت به، ولم تستعمله، لم تستفد شيئًا، خذ هذا الكتاب، وأدخله بالخزانة، ثم افتح.

فكتاب المفتاح كتابٌ يعلِّمنا كيف تفتح المسألة ثم يتركك، طيب أنا أريد أن أدخل داخل هذه المسألة، يقول لك: اذهب إلى عبد القاهر.

إذًا الرجل كان معنا من البداية، قال: هذا الكتاب مفتاح علومٍ، وليس علومًا، لم يقل علومًا، هل قال: خزانة العلوم؟ لم يقل: خزانة العلوم، كما قال البغدادي: خزانة الأدب، لا، هو لم يقل: خزانة، الخزانة ليست عندي، أنا عندي مفاتيح الخزائن فقط، فكان أمينًا، فلِم تسبُّوه؟! افعل مثله إن استطعتَ، لا تقرأه وأرني كيف ستتكلَّم في البلاغة؟!

العقاد قال لهم هذا، حوالي سنة 1960 في كتابه (اليوميات)، قال لهم: أنتم تسبون الرجل، والرجل مات، أنا أريد منكم أن تتركوا بلاغة السكَّاكي تمامًا، وألِّفوا لنا بلاغةً من عندكم، الِّفوا لنا صفحةً واحدةً في البلاغة من عندكم!

لم يرد أي منهم على العقاد إلى الآن، منذ سنة 1960؛ لأنهم يعرفون جيدًا أنهم يأكلون على مائدته، ثم يسبونه! فأرجو أنك لما تسمع مَنْ يسب مدرسة المفتاح؛ فاعلم أنه جهولٌ! لا تقرأ له!

أهمية معرفة التكوين العقلي لصاحب الكتاب قبل قراءته:

هذا الكتاب من المدرسة التي تنظِّم، طيب، هذا الكتاب لرجلٍ اسمه السعد، وقبل أن أن تقرأ كتاب أي عالمٍ، يلزم أن تعرف التكوين العقلي لهذا العالم؛ لأن التكوين العقلي يؤثر عليه، فيلزم أن تعرف أن هذا الرجل تتلمذ على فلان، وعلى فلان، ومتفوق في علم كذا، ومتفوق في علم كذا، وأن هذه العقلية عقلية أصولية؟ أم عقلية لغوية؟ بحيث أعرف مفاتيح القراءة في

هذا الكتاب، فما عليك إلَّا أن تبحث عن تاريخ حياة هذا الرجل الذي يُسمَّى السعد.

صاحب (المطوَّل): سعد الدين بن مسعود التفتازاني

هو أصلًا من أسرةٍ علميةٍ، والده كان قاضيًا، هو ليس عربيًّا طبعًا، حتى هو أصلًا –لما كان يتكلَّم- لم يكن بليغًا في كلامه، ليس طلق اللسان؛ لأنه أعجميٌّ، فيه لكنة، لكنه إذا كتب كان مُبدعًا، هو فصيحٌ قلمًا، وليس فصيحًا لسانًا، بخلاف الخطيب القزويني.

الخطيب القزويني:

الخطيب القزويني عربيٌّ قُحٌ، وخطيبٌ مفوَّهٌ، ولذلك كان اسمه الخطيب؛ لأنه خطيب مسجد دمشق، المسجد الأموي الآن، كان في زمانهم مَنْ يعتلي هذا المنبر هو شيخ الخطباء.

الخطيب فصيحٌ جدًّا في كلامه، وفي كتابته، وحتى خطه، كان خطَّاطًا، هذا كله يؤثر على شخصيته وهو يكتب! ولذلك من أمتع كتب البلاغة في مدارس السكَّاكي هو كتاب (الإيضاح)، كلهم يعترفون له بهذا، وكُتبت له الصيرورة.

العالم إذا طرح الله البركة فيه، إما أن يطرحها في كتبه، أو يطرحها في تلاميذه، أو يطرحها في ذريته، فتجد أبناءه كلهم علماء، وقد يجمع له الثلاثة!

وقد جمعها الله للسعد، فأولاده وأحفاده كلهم علماءٌ، وبعضهم كان يُسمَّى شيخ الإسلام، وكُتبت له الصيرورة.

ليس هناك بلاغي لا يعرف ما (المطوَّل)؟ وأيضًا تلاميذه من كبار علماء زمانهم، فهذا رجلٌ ظني أنه كان مخلصًا لله في علمه، فكُتبت له الصيرورة.

مثل ابن القيم، هل هناك مَنْ لا يعرف ابن القيم؟ كُتبت له الصيرورة، أودع الله له البركة في علمه، فما مات؛ لأن مجرد وجود كتابٍ، هذا مهمٌّ جدًّا، وجود كتابٍ يُطبع ويُنشر، هل تعرف قدر الحسنات التي يأخذها هذا المؤلف؟ كل حسنةٍ تحصِّلها أنت بسبب الكتاب هو أيضًا يأخذها.

فأنتم لو فهمتم هذا الكتاب، فكل الحسنات التي ستحصِّلونها بسبب هذا الكتاب سيحصِّلها هو أيضًا وهو في قبره، هذا يدفعك أن تحرص على أن يكون لك -في يومٍ من الأيام- كتابًا يُنتفع به.

فحاول أن تكون يومًا عالِمًا، ما تقرأه لا بد أن تعلِّق عليه، ولا بد أن تصب عليه من ماء فكرك ليتحوَّل إلى شيءٍ آخر.

فبالتالي أقترح عليك –عندما نبدأ الشرح– أن يكون معك كشكول، وكل ورقة تكتب سطرين، وتترك باقي الصفحة، والصفحة الأخرى لكي تعلِّق عليها أنت وليس أنا، فأنت تقرأ هاتين الصفحتين، وتفكِّر وتكتب، وهكذا، حتى ينتهي كتاب المطوَّل، في النهاية ستجد نفسك عملت حاشيةً جيدةً، سمِّها كما تحب، حاشية كذا على المطوَّل.

لكن أن تقرأ (المطوَّل) ولا تكتب عليه ولا حرف؟! كل الحواشي ما هي؟ الحاشية هي أن الشيخ يشرح الكتاب، والطلاب يسمعون، ويسجلون على حواشي الكتاب، يقيِّد ما قال الشيخ أم يقيِّد ما فهم من الشيخ؟ ما فهم من الشيخ، فيتحوَّل ما كتبه الطالب إلى حاشية على الكتاب.

نحن نعمل حواشي الآن؟ أحسن طالب فينا تمسك كتابه لا تجد فيه خطًّا واحدًا! وبعد أن ينتهي من الاختبار يتركه لك أمام القاعة وينصرف! هكذا يفعل الطلبة، بعد الامتحان يترك الكتاب وينصرف، أرأيتَ العلاقة بين الشيخ والتلميذ في ديارنا الآن؟! ولذلك لا بركة في العلم، لا توجد بركةٌ أصلًا!

إذا لم يكن عندك معرفة بالبلاغة فلن تستفيد كثيرًا منا، نحن سنتكلَّم عن عقلية الرجل، تعامله مع المسألة، كيف حاور الخطيب؟ كيف رد على الخطيب؟ كيف كذا، كيف كذا، كيف عبَّر؟

أما أصل المسألة التي تكلَّم فيها الخطيب، فأنت يلزمك أن تكون على علمٍ بها مسبقًا.

☼ **طيب، أنا لم أدرس بلاغة من قبل، ماذا أفعل؟**

نقول لك: الدرس الذي سنطلب منك قراءته:

اقرأه أولًا في كتاب اسمه (البلاغة الواضحة) لعلي الجارم، وهذا موجودٌ على الموقع، انتهِ منه؟ واقرأ الدرس، وقم بحل التمارين.

اذهب –بنفس الدرس– لكتاب (جواهر البلاغة) للهاشمي، وافعل نفس الشيء، هذا كله لن يستغرق معك أكثر من ساعتين.

بعد ذلك ادخل على كتاب (علوم البلاغة) للمراغي.

بعد ذلك اقرأ في (الإيضاح) إن استطعتَ، أو اقرأ في كتب الشيخ أبو موسى إن استطعتَ، يكفينا (علوم البلاغة) للمراغي، إذا عرفته وفهمته واستوعبته واستحضرته، أي استحضرت المعلومات في عقلك، هنا يمكنك أن تفهم حوار الخطيب، حوار عالمين، إيَّاك أن تظن أن هذا ورقٌ عليه حبر! لو كان مجرد ورق عليه حبر لا أشتريه ثلاثة جنيهات! أنا أشتري عقل السعد!

إذًا لما أذهب لأشتري كتاب (المطوَّل)، فأنا أقول له: أريد عقل السعد، فلما يقول لي: بمائة وخمسين جنيه، لا أقول له: لا، أنت تفاوض في السعر

لما تقوم بشراء ورق، أنا إلى يومي هذا ما تفاوضتُ على سعر كتابٍ على الإطلاق! إذا كنتَ تعرف ما معنى كتاب فعيبٌ عليك أن تتفاوض على سعره، فهذا عقل رجلٍ.

ولذلك العقاد لما قيل له: أنت رجلٌ (برَّاوي)، أي لا يحب أن يجتمع مع الناس، قال: "**أنا أكثر الناس أنسًا بالناس**" لا أحد يحب الناس ويعيش معها مثلي: "**إلَّا أني أختار مَنْ أجلس معه، فكل كتابٍ إنما هو رجلٌ**" فمكتبتي هذه فيها عشرة آلاف، أنا أمارس حياتي وحولي عشرة آلاف، لأنه وهو يقرأ في الكتاب إنما يحاور العالِم.

لهذا تحمَّل العزوبية، نحن لا نتحمَّل العزوبية لأننا لا نشعر بمن حولنا، المكتب عليه عشرة كتب، لا أشعر أن عليه عشرة علماء!

لو شعرتَ بالوحشة، وزرتَ (المطوَّل)، سأزور السعد الآن، هو يكلِّمني وأنا أكلِّمه، لو لم تشعر بهذا الإحساس فلا داعٍ لأن تقرأ، ولا داعٍ لأن تأخذ العلم طريقًا إلى الجنة!

أخطر الطرق إلى الجنة العلم! خطرٌ جدًّا، ولا ينجو منه إلَّا قليلٌ؛ لأن على جنبات طريق العلم ذئابٌ وضباعٌ وثعابين وعقارب! فصعبٌ جدًّا، فابحث عن طريقٍ آخر، خدمة الفقراء، خدمة المحتاجين، هذا هو أسهل الطرق، لكن طريق العلم لا ينجو منه إلَّا مَنْ كان الله له!

هناك ما يُسمَّى مقدمة الكتاب يكتبها المؤلِّف، وهناك ما يُسمَّى مقدمة العلم، خطبة كتاب السعد، وخطبة الخطيب القزويني لن ندرسها الآن؛ لأنك لن تفهم ما فيها إلَّا إذا كنت تفهم البلاغة.

فإذا مد الله في العمر، وبقينا في صحتنا وعافيتنا، وأذِن لنا وانتهينا من الكتاب، سنعود ثانية ونأتي بخطبة هذا الكتاب، ونتعامل معهم على أنهم نصٌّ أدبيٌّ، ونطبِّق كل الذي درسناه في كتاب (المطوَّل) على كلام السعد، لكي نقول له: أنت لما علَّمتنا البلاغة، كنت تستعملها أم لم تكن تستعملها؟

لكي تجرب اقرأ واحدة في البيت –خطبة الكتاب- وانظر ماذا سيفعل الرجل بك؟ سيسبب لك صُداعًا، وستشعر بقيمتك العلمية أمام هذا الرجل، لكن لا يمكنك أن تفهم هذا الكلام، أو تدرسه دراسةً علميةً إلَّا إذا كنتَ مستوعبًا للكلام الذي..

فمقدِّمات الكتب الكبار تُدرس بعد الانتهاء من الكتاب، لكن تُقرأ أولًا لكي تتعرَّف عليه، لكن لكي أدرس المقدمة يكون ذلك بعد أن أنتهي من الكتاب، ارجع ثانيةً للمقدمة لتتخذها مادة مدارسة كأنها رسالة لعبد الحميد الكاتب، أو العتَّابي، أو الجاحظ أو غيرهم.

فنحن سنبدأ من أول قوله: في الفصاحة والبلاغة والبيان، وانتبه وأنت تقرأ معنا أن تضبط النسخة التي معك، فسنبدأ في المرة القادمة –إن شاء

الله- من أول قوله: [**واعلم أن للناس في تفسـير الفصـاحة والبلاغة أقوالًا**] اقرأ صـفحتين أو ثلاثة، مرتين، أو ثلاثة، أو أربعة، واضـبط الكلام الذي معك.

وأنا أشـرح قد يعن في عقلك سـؤالٌ اكتبه في ورقةٍ، وأنا سـأترك ثلث الساعة الأخير للأسئلة الاستفسارية، هذه واحدة، إذا كنتُ أشرح وعُمِّي عليكَ شيءٌ، ماذا ستفعل؟ أشِر لي هكذا، يعني المسألة مغلقةٌ، أنت تريد بسطًا، أشر لي هكذا، سأعرف ما تريد بالإشارة، سأعرف أنك لم تفهم، وسأحاول أن أوضح.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألَّا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

****